مسألة التناص والسرقات الشعرية عند الجاحظ
من خلال قراءة عبد الملك مرتاض في كتابه نظرية النص الأدبي

The issue of intertextuality and poetic thefts for Al-Jahiz
By reading Abdul Malik Murtad in his book Literary Text Theory

هزرشي عبد القادر1،*، خالد تو اتي2

1جامعة تيسمسيلت، (الجزائر)، abdelkaderhazerchi85@gmail.com

2جامعة تيسمسيلت، (الجزائر)، khaledtwati@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/08/11 **تاريخ المراجعة**: 2022/04/01 **تاريخ النشر**: 2022/06/15

ملخص:

في مقالنا هذا سنحاول تتبع قضية التناص والسرقات في الموروث الشعري العربي القديم، من خلال مصنفات الجاحظ، الذي أثار هذه المسألة ووقف عندها كثيرا وجعلها محل نقاش، وقراءة، يمتدان مع الزمن، ليلتقيا ونظرة المحدثين للتراث، الذين يحاولون استنطاقه وإخراج ما فيه من كنوز، على نحو ماجاء في كتاب نظرية النص الأدبي لعبد الملك مرتاض، الذي منح مسألة التناص والسرقات عند الجاحظ حيزا من كتابه وفق قراءة خاصة، لا تقطع صلة بالتراث في التأصيل لنظرية النص الأدبي.

وتهدف هذه الدراسة إلى البحث في جسور التواصل المعرفي بين أفكار الباحثين في عصرنا الراهن حول هذه المسألة، مع من سبقهم إلى طرحها، ومن خلال هذه الدراسة وجدت أن النظريات الحديثة سواء العربية أو الغربية لا يمكنها قطع الصلة بالتراث لأنه المؤسس لبنائها المعرفي، كما أن كتابات الأوائل كتابات ممتدة في الزمن وليست حبيسة فترة معينة.

الكلمات المفتاحية: قراءة، نص،تناص، سرقات، نظرية النص.

Abstract:

In this article, I will try to trace the issue of intertextuality and thefts in our ancient Arabic literature by tracing its various circumstances and reasons, in the works of Al-Jahiz, who raised this issue and stopped at it a lot and made it a subject of discussion and reading extended with time.

This study aims to identify the vision of contemporary writers on heritage and how to discuss its issues. Through this study, I found that the writings of the ancients are valid for every time and place.

Key words: Reading, text, intertextuality, thefts, text theory.

* المؤلف المراسل.

تقديم:

سنحاول التطرق في هذا المقال إلى مسألة التناص والسرقات الشعرية بوصفها قضية نقدية تراثية،جذبت أفكار النقاد في عصرنا الحاضر فحاولوا مُسَاءلة أفكار القدماء حولها ومناقشتها، على نحو ما جاء به عبدالملك مرتاض في كتابه نظرية النص الأدبي، الذي تتبع جذور هذه المسألة في مصنفات الأدب والنقد العربي القديم ووقف عندها طويلا بقراءة فاحصة، متمعنة، لعينات، وأمثلة كثيرة، من المصنفات التراثية، أخضع متونها للقراءة، والنقاش، والتحليل، وقد اخترت في هذا المقال أن أخذ عينة من هذه الأمثلة التراثية التي عرضها مرتاض في كتابه ألا وهي قضية التناص والسرقات الشعرية عند الجاحظ الذي وقف مع متون مؤلفاته في هذه القضية وناقشها وفق نمط حواري خاص، استدعى السؤال فيه البحث في العلاقة التي تربط التراث بالحداثة، وآراء القدماء والمحدثين ونظرياتهم في قضايا النص الأدبي، من أجل التأسيس لنظرية حديثة في الأدب لا تقطع صلة بأفكار الأوائل الذين يعتبرون المؤسس الأول لمنطلقات هذه النظريات الحديثة، من خلال الآراء التي أدلو بها في مختلف مسائل الأدب، والنقد قديما، على غرار ما أدلى به الجاحظ من تصورات وأفكار ومنطلقات معرفية في كثير من مصنفاته التي عالجت مسائل الأدب والنقد، والإشكال المطروح الآن كيف قرأ مرتاض آراء الجاحظ ونقشاته في هذه المسألة؟ وهل اعتبرها نقطة بداية وإشارات واضحة لتكوين معالم النظريات الحديثة في الأدب، كنظرية النص الأدبي؟ هل تعتبر الأفكار والآراء التي بثها الجاحظ حول مسألة التناص والسرقات بمثابة المنطلقات، والإرهاصات، التي تؤسس لنظريات الأدب والنقد في مختلف العصور بعده؟

أولا: نظرة عامة حول كتاب نظرية النص الأدبي ومؤلفه

أ- كتاب نظرية النص الأدبي

يعد هذا المؤلف من الكتب التي جمعت قضايا النص الأدبي وطرحتها على مائدة المعرفة، ليمد إليها كل ذي حاجة لغذاء العقل نظره وقرأته، ليشبع نهمه المعرفي منها، والكتاب هذا مكون من ثمانية فصول بتعداد أربعمائة وعشرين صفحة، أو أكثر من ذلك، تناولت قضايا المركز للنص الأدبي، ليكون إضافة للمكتبة العربية تفتح أفقا جديدا للسؤال المعرفي، الذي يعتبر مجالا مفتوحا لا تعلم له نقطة توقف ونهاية عند إجابة معينة.

وكتاب عبد الملك مرتاض[1]، يعد بمثابة جولة سياحية لا متناهية المعالم، في عوالم المعرفة بالنص الأدبي وعلائقه المتعددة، محطاته تستوقفنا عند الكثير من القضايا والمفاهيم، والإشكاليات التي تبحث لها عن نظرية تستمد من خلالها طاقتها وحيويتها المعرفية، التي لا تقطع صلتها بالتراث وعبد المالك مرتاض هو صاحب مقولة "التراث العربي الأصيل حداثة متوهجة" .

وكتاب نظرية النص الأدبي عبارة عن قراءة عميقة نافذة في أعماق التراث العربي تجمع بين التنظير والتطبيق .

ب- مضمون الكتاب

جمع هذا الكتاب العديد من القضايا الأدبية، والنقدية، التي يحوم حولها السجال، والجدال، والمناظرة، في الساحة الأدبية العربية، والغربية، وربطها بالتراث العربي الأدبي، الذي يعتز به صاحب الكتاب ويعتبره المورد الأول للمعرفة بقضايا الأدب والنقد، في الوطن العربي، فرسم فصول كتابه على النحو التالي :

- الفصل الأول نظرية نص أدب (تأصيل لماهية المفاهيم)
- الفصل الثاني ماهية الفن ووظيفته
- الفصل الثالث تشابك العلاقة بين الكتابة والنص
- الفصل الرابع النص والسيمائيات الأدبية.
- الفصل الخامس نظرية التناص عند العرب أخذ هذا الفصل حيزا كبيرا من الكتاب ما يزيد عن ثمانية وستون صفحة تناول من خلاله موضوعات كثيرة منها:

لموقف من التراث النقدي العربي ومفهوم السرقات في النقد العربي القديم ومفهوم التناص عند أبي عثمان الجاحظ ونقاد آخرين أمثال ابن طباطبا العلوي، والجرجاني، وابن خلدون، وحازم القرطجاني..

- الفصل السادس التناص في النقد الغربي المعاصر .
- الفصل السابع حول مفهوم الحيز الأدبي ومتعلقاته.
- الفصل الثامن مكونات أخرى للنص الأدبي كالتمدلل والنتاجية ..

ج- اهتمام عبد الملك مرتاض بالتراث

من خلال المقولة التي أطلقها عبد الملك مرتاض والتي يقول فيها: "التراث العربي الأصيل حداثة متوهجة" يظهر لنا مدى اهتمامه بالتراث، وبكل ما هو عربي قديم، خالص خام المادة، ويرى مرتاض أن التراث العربي والإسلامي يعد بحرا لجي زاخر بكنوز المعرفة، وخزان للثقافة الإنسانية، الرفيعة السخية، لأنه عرف الجدل، والمنطق، كما عرف الفلسفة، والتيارات الفكرية، والمذهبية، كما عرف الاتفاق في الرأي، و تعامل مع الاختلاف فيه برقي فكري مدهش، برهانه على مقاله هذا بأن الذي يقرأ كتابات المفكرين العرب الكبار أمثال الجاحظ، وابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، والفارابي، وأبو حيان التوحيدي .. وغير هؤلاء المفكرين العماليق على حد قوله يدرك ويقتنع بعظمة التراث العربي المتنوع والمتعدد والمتسامح والراقي معا، وما يعزز اهتمام مرتاض بالتراث أنني وجدته يستهل الفصل الخامس من كتابه - نظرية النص الأدبي- بمقولة لعلي ابن أبي طالب -رضي الله- عنه يقول فيها: " لولا أن الكلام يعاد لنفد" ويردفها بمقولة أخرى لأبي عثمان الجاحظ يقول فيها :

« لا يعلم في الأرض شاعر تقدم بتشبيه مصيب تام، وفي معنى عجيب غريب، أو في معنى شريف كريم (...)، إلا وكل من جاء من الشعراء، من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه ».

ومما يزيد من اهتمامه بالتراث العربي، هو المكانة العالية التي وصلها هذا التراث، في حقل الأدب خصوصا، الذي عرف كل الأجناس الأدبية، التي عرفتها الآداب الإنسانية الكبيرة، عبر عصورها مثل الآداب

اليونانية، والفارسية، واللاتينية.. والتي بقيت متماسكة قوية متطورة، عبر كل العصور، ومن أمثلة هذه الآداب القصيدة الشعرية على تنوع أغراضها، وسائر فنون النثر على مختلف أنواعها.

2/ مفهوم التناص والسرقة في مجال الأدب العربي

2-1 التناص

- التناص لغة:

لم يُتداول هذا المصطلح في المعاجم اللغوية العربية القديمة، غير أن هناك إشارة إليه ولو من بعيد في معجم لسان العرب لابن منظور في: «"تناص" القوم عند اجتماعهم أي: ازدحموا، و"نصص" المتاع أي جعل بعضه فوق بعض، و"نص" الحديث إلى صاحبه أي: رفعه وأسنده.. »[2]

- التناص اصطلاحا:

التناص مفهوم نقدي له امتداد في تراثنا العربي النقدي القديم، فقد انتبه النقاد القدامى له من خلال البحث في أوجه التشابه بين النصوص الشعرية، للتدليل على مدى إبداع الشاعر وابتكاره للمعاني الجديدة، التي لم يسبقه إليها أحد ومن ثَمَّ الحُكم عليه بأنه مُقلِد يأخذ معاني من سبقه ويعيد صياغتها[3].

يعرف عبد الملك مرتاض التناص بقوله : " هو تبادل التأثر والعلاقات بين نص أدبي ما ونصوص أدبية أخرى". ثم يؤكد على أنَّ هذه الفكرة قد عرفها النقد العربي بصورة تفصيلية تحت باب السرقات الشعرية، فالتناص عنده عبارة عن حدوث علاقة تفاعلية بين نص سابق ونص لاحق ونص حاضر لإنتاج نص لاحق[4].

وقد ظهر في تراثنا النقدي، مصطلحات عديدة تقارب مصطلح" التناص"، في الحقل البلاغي(كالتَّضمين والتَّلميح، والاقتباس...الخ.) وفي الميدان النقدي(كالمناقضات والسرقات والمعارضات..) وكلها تقترب من مفهوم التناص.

2-2 السرقة

حظي موضوع السرقات الأدبية بحيز كبير في كتب النقد، والبلاغة، لما له من أهمية في معرفة أصل النصوص، ومن أهم النقاد القدماء الذين ناقشوا هذه القضية محمد بن سلام الجمحي، والآمدي، والجرجاني والجاحظ، وغيرهم كثير.

وقد كان لقضية السرقات حضور قوي في التراث العربي، حيث تَعرضَ لها أهل الأدب بكثير من الشَّرح، والتَّحليل، والتعليق، في مصنفاتهم، بل وجعلوا يطلقون عليها أسماء، ومفاهيم، اعتُبِرَت بمثابة الدرجات على نحو: الانتحال، الإغارة، الاجتلاب، النسخ، السَّلخ، الاصطراف، التَّضمين، الغصب، السَّرق، الأخذ ...الخ

- السرقة لغة:

تُعرَف السرقة في اللغة بأنها اسم من : ("سَرقَ" منه الشيء يَسْرِقُ سَرقاً، واسْترقه: جاء مستتراً إلى حِرز، فأخذ مالا لغيره)[5]، وسَرقه: أخذ ماله خفية.[6]

- السرقة اصطلاحا:

وقد أُستُعِير المعنى الاصطلاحي من المعنى اللغوي للكلمة؛ ليدلَّ على الفعل ذاته، وهو السرقة، وإن كان من اختلاف، في ماهية ونوع المسروق فقط.

ونجد من يعرفها بأنها الأخذ من كلام الغير، وهو أخذ بعض المعنى، أو بعض اللفظ، سواء أكان أخذ اللفظ بأسره، والمعنى بأسره، وهو أن يعمد الشاعر إلى أبيات شاعر آخر فيسرق معانيها، وألفاظها، وقد يسطو عليها لفظا، ومعنى، ثم يدعي ذلك لنفسه[7].

وقد قال طرفة بن العبد:

وَلا أُغيرُ عَلى الأَشعارِ أَسرِقُها *** عَنها غَنيتُ وَشَرُّ الناسِ مَن سَرقا[8]

3-2 مقارنة بين التناص والسرقة في مجال الأدب

قضية المشاكلة والاختلاف بين السرقات الأدبية والتناص، أثِيرت كثيرا في الدرس القديم تحت مِظلة السرقات، وأثِيرت في النقد الحديث تحت مِظلة التناص، فوجدت صدى لدى الباحثين والدارسين، فتَبايَنت فيها وجهات النظر، في التفريق بين المصطلحين وتبيان أهم نقاط التشابه والاختلاف بينهما.

أبرز نقطة يختلف فيها التناص عن السرقة هي:

- أنّ فعل السرقة فعل لا أخلاقي في حين أنّ التناص فعل أخلاقي.
- التناص يعني بالمفهوم الاصطلاحي امتصاص النصوص وتداخلها وهذا فعل إيجابي لأنّ فيه تلاقح بين النصوص، بينما السرقة تعني الأخذ والنسب إلى الغير وفي ذلك انشقت الآراء حول العلاقة التي تربط التناص بالسرقة، فالبعض يجد لهما نقاط التشابه والاختلاف، وفريق آخر ينفي وجود علاقة التشابه بينهما.
- وأما ما يتشبهان فيه هو توظيف بعض المصطلحات بنفس التسمية مثل: القلب أو العكس أو التوارد والتداخل تارة يكون على مستوى المعنى وتارة على مستوى اللفظ، وكذلك جلّ مصطلحات السرقة تعبر عن النهب والسرق والاختلاس، في حين يعتبر التناص هو مجرد تداخل وتلاقح بين النصوص وفعل السرقة سلبي بينما التناص فعل إيجابي.

3/مناقشة مرتاض لأفكار الجاحظ حول مفهوم التناص والسرقات الشعرية

يقول عبدالملك مرتاض التَّناص هو استبدال نصوص سابقة بنص حاضر دون قصد، حيث قال أنَّ الشعراء لم يكونوا يُقِرون بسرقاتهم إلا نادرا جدا، وإنَّما النقاد هم من كانوا يتهمونهم بالسرقة أي سرقة أفكار وألفاظ شعراء آخرين .. ويرى أن هذا العمل يعد من قبيل ما يطلق عليه السيمائيون: مصطلح التناص ويستدل بمقال الجاحظ حين ذهب إلى أنهم ربما كانوا ينكرون أنهم سمعوا بذلك المعنى قط ،[9] فالجاحظ هنا يقر بمبدأ التناص حين يقرر أن هناك من المعاني ما يجوز للشعراء أنْ تتنازعه جميعا[10]،يقول الجاحظ ‹‹لا يعلم في الأرض شاعر تقدم بتشبيه مصيب تام ، وفي معنى عجيب غريب، أو في معنى شريف كريم (...)، إلا وكل من جاء من الشعراء، من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لايدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم،و أعاريض أشعارهم، ولا يكون

أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ».[11]الجاحظ يرد الأصل في السرقات الشعرية إلى إعجاب المتأخرين بالمتقدمين، حين يقع استحواذ الأواخر على أفكار الأوائل، فأطلق على هذا الاستحواذ مصطلح << التنازع >> فيلاحظ من إطلاقه لهذا المصطلح كأنه يرفض فكرة السرقات.

ويقول عبد الملك مرتاض عن السرقات إنها مع التجاوز في التعبير، والتَّسامح في التعريف : اقتباس خفي أو ظاهر للفظ أو جملة من الألفاظ، في سياق ما، وإعادة صياغتها في بيت واحد من الشعر غالبا.[12]

وفي مكان أخر نجد الجاحظ يتكلم عن السرقات ومرتاض يعلق وينظر على النص الجاحظي حول السرقات الشعرية، إذ يقول: والآن وقد انتهى بنا الأمر إلى الإيماءة إلى رأي الجاحظ المشهور عن اللفظ والمعنى الذي يقرر فيه أن المعاني مطروحة في الطريق[13]

يعلق على هذه المقولة بقوله نلاحظ أن هذه المقولة تنطوي على عكس ما يذهب إليه أصحاب فكرة السرقات الشعرية، فإذا كانت المعاني مطروحة في الطريق وهي في متناول جميع الناس، فما الذي يمنع أن يحاكي شاعر شاعرا آخر، أو يقلده، بل له أن يسرق منه، فالشعراء شركاء في المعاني، كما هم شركاء في الألفاظ .. ولا ينبغي عدم المبالغة والتسرع في الحكم على الشاعر الثاني بالسرقة من الأول، لمجرد التشابه بينهما في تناول فكرة بعينها[14]..

من خلال هذه المناقشة والقراءة التي قدمها مرتاض حول آراء الجاحظ في مسألة السرقة والتناص في الموروث الشعري العربي والعلاقة القائمة بينهما يتجلى لنا بوضوح تام أن الجاحظ كانت له نظرات استباقية حول موضوع السرقات تجاوزت القضايا المطروحة في زمانه، فهو عندما يتكلم عن السرقات يحيل قارئ اليوم الى القضايا المطروقة في مجال الأدب والنقد العربي في وقتنا الراهن كقضية التناص،

الجاحظ من خلال قراءة مرتاض يلاحظ أنه يتجنب لفظ السرقة ويحاول التعبير عن هذه المسألة بما يوافق نظرته لها إذ نجده يستعمل مصطلح << التنازع >> بدلا من السرقة،لأنه يرى الشعراء شركاء في المعاني كما هم شركاء في الألفاظ، لذا لينبغي الحكم على شاعر بالسرقة من شاعر أخر لمجرد وجود تشابه بينهما حول فكرة معينة،الجاحظ يرد ظاهرة التشابه بين الشعراء في قصائدهم الى عامل المحكاة والتقليد بينهم الذي لايصل إلى درجة أن يسمى سرقة بمعناها العام المتعارف عليه.

4/ الشواهد الشعرية التي استعملها الجاحظ في حديثه عن السرقات

استعمل الجاحظ كثيرا من الأبيات الشعرية كشواهد وعينات تبين لنا ظاهرة السرقة الشعرية جليا من منظور واقعي تطبيقي، حيث وجدناه يأتي بالأبيات الشعرية وأشباهها ليَعقِد عليها وجوها من المقارنة تُفضي إلى بيان أصلها وتردها إلى قائلها الأول.

فنجده على سبيل المثال يعرض مصطلح السرقات في موضوع العصا حين علق على بيت ليزيد بن مفرغ:

العَبدُ يُقرعُ بالعَصا***والحرُّ تَكفيه الملامَة[15]

حيث علق على موضوع هذا البيت فيقول : قالو: أخذه من الصلتان الفهمي[16] حيث قال :

العَبدُ يُقرَع بالعصا والحرُّ تَكفيه الإشَارة[17]

ثم يورد أبياتا أخرى يستشهد من خلالها إلى قضية الأخذ كما أسماها:

قول مالك بن الريب:

العَبدُ يُقرعُ بالعصا***والحُرُّ يَكفيهِ الوعِيد[18]

وقال بشار بن برد:

الحُرُّ يَلحَى والعصا للعَبد***وليس للمُحَلَف مثلُ الرَد[19]

وقال أخر:

فاحْتلت حين صَرَمتني***والمرأُ يعجز لا المحالةَ

والدَهرُ يلعبُ بالفتى***والدهر أرْوَغُ من ثُعالَة

والمرأُ يَكسبُ مَالَه***بالشحِ يورِثه الكَلالَةَ

والعَبدُ يقرعُ بالعَصا***والحرُ تَكفِيه المَقَالةَ[20]

قال الحارث بن وعلة:

وزَعَمْتُم أنْ لا حَلُوم لنا***إنَّ العصا قُرِعت لِذي الحِلم[21]

وقال المتلمس في ذلك:

لِذي الحِلم قَبل اليوم ما تُقرَع العَصا***وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليَعلَمِ[22]

وقال الفرزدق بن غالب:

فإن كُنت أَسْتَأني حَلُوم مجُاشِع***فإنَّ العصا كانت لِذي الحِلم تُقرَعُ[23]

كما يستشهد على هامش البيان والتبين بقول خفاف بن ندبة

وعَياشُ يدُبُ إلى المَنايا***وما أذنبت الا ذنبَ صَحَر[24]

قول عروة ابن أُذَينة الذي أشار اليه الجاحظ في كتابة الحيوان

أتجمع تهايما بليلى إذا نَأت***وهَجرنها ظُلما كما ظُلِمت صَحَر

وقال أخر:

مجَالسهم خَفض الحديثِ وقَولهُم***إذا ما قَضوا في الأمَر وَحْي المخاصرِ[25]

وقال الأخر:

يَصبون فَصْلَ القَولِ في كل خُطبة***إذا وَصلوا أيمانَهم بالمَخاصِر[26]

وقال النمر بن تولب :

أَفْرغت في حوضها صَفنى لتَشربه***في داثر خَلق الأعَضادِ أَهْدامُ[27]

يروى نظيره لأبي داود في اللسان (صفن)كأنه هو:

هَرقت في حوضه صَفنا ليشْربه***في دائر خلق الأعضاد أهدامُ[28]

لقد كان الشاهد الشعري حاضرا بقوة عند الجاحظ في مَسْألة حديثه عن السرقات الشعرية،يقول مرتاض: وجدته يأتي بالبيت وشبيهيه، ليعقد المقارنة بينهم بحثا عن أيهما الأصل فيرده إلى قائله،مبينا كيف تشابه البيتان أو اجتمعا في نفس المعنى، مع بيان حجة هذا التشابه والتَّشاكل.

ويؤكد مرتاض أن الجاحظ من خلال هذه الشواهد الشعرية كان يرجع الأصل في السرقات الشعرية إلى إعجاب المتأخرين بالمتقدمين حين يقع استحواذ الأواخر على أفكار الأوائل، كما نجده أيضا يشير إلى أنَّ الجاحظ كان يرفض فكرة السرقات، فقد وجده يصطنع مصطلح التنازع بين الشعراء بدلا من السرقات.

5/ معجم التناص والسرقات عند الجاحظ

أشار مرتاض في كتابه نظرية النص الأدبي إلى بعض المصطلحات التي خصها الجاحظ بموضوع التناص والسرقات الشعرية من خلال تعليقاته المبثوثة في طيات متن كتاب الحيوان، والملاحظ أنَّ إشاراته إلى هذه المصطلحات جاءت دون أخذها بالتفصيل وإنما كانت عبارة عن ومضات جاءت في إطار حديثه عن قضية السرقات الشعرية.

التَّنازع: هو المسألة التي يشترك فيها الشعراء سابقهم مع لاحقهم كما أكد الجاحظ أن هناك من المعاني ما يجوز للشعراء أن تتنازعه جميعا.29

مصطلح التنازع أستعمل عند الجاحظ كمصطلح بديل عن السرقة، حيث يرى الجاحظ أن التشابه بين الشعراء مرده إلى تشارك الشعراء في الألفاظ والمعاني حول الفكرة الواحدة وقد يحدث هذا دون قصد ونية إلى السرقة وإنما هو تنازع في المعنى واللفظ فرضته طبيعة الموضوع المتناول من طرف الشاعر.

الأخذ: تكلم عنه الجاحظ في سياق حديثه عن أحمد بن عبد الوهاب على سبيل السخرية منه في رسالة التربيع والتدوير30وفي البيان والتبين أيضا ورد ذكره31،كما أن مصطلح الأخذ يتداخل ومصطلح الإتباع كما أشار إلى ذلك الجاحظ،الأمر الذي جعل مرتاض يؤكد أن الجاحظ كان يدور في بعض كتاباته مصطلح السرقة الذي كانت الكُتَّاب تلهج بذكره، وتذهب فيه المذاهب نفيا وإثباتا.

يستشف من خلال قراة مرتاض ومناقشته لأراء الجاحظ في هذه المسألة أن موضوع السرقات الشعرية كان حاضرا بقوة في نقاشات الجاحظ حول قضايا الشعر العربي وماتعلق بها من مسائل نقدية، غير أنه وجده يتجنب مصطلح السرقة ويحاول استبداله كل مرة بمصطلح أخر يصرف عن معنى السرقة ويثبت وجود قضية تشبه السرقة في ظاهرها غير أنها ليست سرقة بالمفهوم المتعارف عليه لمصطلح السرقة، الأمر الذي جعل الجاحظ، يستخدم معجما خاصا يحيل الى مايسمى السرقة قديما أو مايطلق عليه اليوم بالتناص.

كما تعرض الجاحظ لهذا المصطلح في موضوع العصا حين علق على بيت ليزيد بن مفرغ

العَبدُ يُقْرعُ بالعصا***والحر تكفيه المُلامةُ32

حيث علق على موضوع هذا البيت فيقول : قالو: أخذه من الصلتان الفهمي حيث قال:

العبد يقرعُ بالعصا***والحرُ تكفيه الإشَارةُ33

الاسْتِحواذ: استحواذ الأواخر على أفكار الأوائل وهذا راجع إلى درجة إعجاب المتأخرين بالمتقدمين .34

كما تجدر الإشارة إلى أن هناك مفردات وألفاظ أشار بها الجاحظ ولمح إلى قضية السرقات، لم يتوقف عندها عبدالملك مرتاض لأن دراسته هذه تقوم على مناقشة أفكار الجاحظ، لأجل التقعيد لنظرية النص الأدبي فالمفردات والألفاظ التي لم يذكرها في كتابه نظرية النص الأدبي أذكر منها:

لفظ الشبيه: استعمل الجاحظ هذه الكلمة فيما يزيد عن خمس مواطن يشير فيها إلى الاشتراك في المعنى الواحد بين الشعراء ومثال هذا تعليقه على قول حارثة بن بدر:

إذا مَامِتُ سُرَّ بَني تَميم***على الحَدثان لو يَلقون مِثلي

عَدو عَدُوِهم أبدا عَدوي***كذلك شَكلهم أبدا وشَكلي[35]

علق الجاحظ على هذا البيت بقوله وهذا شبيه بقول الأعشى:

عُلِّقْتُها عَرَضا وعُلِّقَتْ رَجُلا***غَيري وعُلِّقَ أُخْرى غَيرَها الرَّجلُ[36]

1- ومن تعليقاته التي اكتفى فيها بألفاظ معينة وهو يورد بعض الشواهد الشعرية في حديثه عن السرقات أذكر العبارات الآتية:

- قال في هذا المعنى.
- يمر التشابه دون تعليق: أي يغفل عن التعليق لايعلق.
- وهذا كثير جدا.
- ذهب إلى قول فلان.
- ومثله أيضا قول فلان.
- رام مثله.

خاتمة

من خلال هذه الدراسة المتعلقة بمسألة التناص والسرقات الشعرية عند الجاحظ، من خلال قراءة عبدالملك مرتاض، في كتابه نظرية النص الأدبي، الذي تناول قضية التناص والسرقات الشعرية عند الجاحظ بقراءة خاصة، ونقاش مستفيض، يظهر لنا من خلالها مايلي:

- مصنفات النقاد والأدباء من أمثال الجاحظ لم تكن رهينة فترة معينة وقضية أدبية أو نقدية بعينها وإنما كانت أكبر بكثير من هذا كله، فقد امتدت عبر الزمان، والمكان، وتناولها القدماء، والمحدثين بالنظر والتأمل، والقراءة تلو القراءة ..
- كتاب نظرية النص الأدبي عبارة عن قراءة عميقة نافذة في أعماق التراث العربي، تجمع بين التنظير والتطبيق، كتاب لم يقطع الصلة بكتابات القدماء، وبقي يصلها بالنقاش، والمحاورة، والقراءة المستفيضة المنتجة.
- من خلال قراءة مرتاض لمسألة التناص والسرقات عند الجاحظ، يظهر لنا جليا أن الجاحظ كان يتجنب مصطلح السرقة بمعناه العام المتداول ويحاول التعويض عنه بمعجم اصطلاحي خاص، يخدم المسألة معرفيا، وأخلاقيا بعيدا عن المصطلحات الجارحة، فكانت المصطلحات التي لمح بها الجاحظ إلى مايسمى بالسرقة في عرف النقد في زمانه نظرة استشرافية، استباقية إلى مايسمى اليوم بالتناص.

- مرتاض من خلال قراءته لمسألة التناص والسرقات الشعرية عند الجاحظ في كتابه نظرية النص الأدبي نجده يشير إلى الشواهد الشعرية التي خص الجاحظ بها المَسْألة وتعليقاته عليها فيضيف عليها قراءته الخاصة التي تدعم قراءة الجاحظ، وتناصرها فتتأكد لنا مقولتة "التراث العربي الأصيل حداثة متوهجة"
- يرى مرتاض قضية التناص والسرقات التي وقف عندها الجاحظ في تراثنا العربي أنها تعتبر من القضايا المعرفية التي لها امتداد وتقاطع مع النظريات الحديثة، كنظرية التناص التي ارتبطت بالباحثة جوليا كريستفا وغيرها من الباحثين، مع اختلاف في المسمى والاصطلاح.
- نجد أن مرتاض يتوافق وما ذهب إليه الجاحظ في كثير من التصورات، والمنطلقات المعرفية كالقول بأن السرقات الشعرية قائمة على صور الأخذ، والانتساب إلى الغير، بينما التناص قائم على صور التداخل النصي بين نص وآخر.
- وأخر ما يمكن قوله هو مقولة علي ابن أبي طالب ﷺ : " لولا أن الكلام يعاد لنفد"

هوامش وإحالات المقال

[1]- ترجمة مؤلف كتاب نظرية النص الأدبي: عبد الملك مرتاض ولد في عشرة أكتوبر خمسة وثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد، في مسيردة بولاية تلمسان من الغرب الجزائري، أستاذ جامعي وأديب جزائري، حاصل على الدكتوراه في الأدب،يشتغل أستاذا لمقياس الأدب الجزائري، كما شغل منصب رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، كما نال شرف عضوية لجنة التحكيم في مسابقة شاعر المليون التي أقيمت في أبو ظبي .

له مؤلفات كثيرة نذكر بعضا منها:

نهضة الأدب المعاصر في الجزائر، قضايا الشعريات، في نظرية الرواية، نظرية البلاغة، ومؤلفات أخرى تزيد عن الخمسين مؤلفا.

2- ابن منظور : لسان العرب، ص57

3 - يحي بن مخلوف،التناص ntertextualité (مقاربة معرفية في ماهيته وأنواعه وأنماطه حسان بن ثابت)، دار قانة،(دط)، باتنة-الجزائر، 2008 م، ص22

4 - خليل الموسى، التناص والأجناسية في النص الشعري ، مقال في مجلة الموقف الأدبي ، الصادرة عن إتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ع 305 ،سبتمبر 1996م، ص83.

5- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1997،2ص 1153

6- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية،2005 م، ص427

7- بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، دار المنارة،الرياض، ط3،1983م،ص1340

8- ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم الشنتمري (170) نقلا عن الطبعة الاشتراقية (156)، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

9- عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي " ص 200

10- الجاحظ الحيوان، ج3، ص311

11- ينظرالجاحظ، م س. ج3، ص211

12- عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي ص199

13- الجاحظ الحيوان، ج3، ص131.

14- عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي " ص 210

15عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي " ص222

16- عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي " ص 222

17- الجاحظ البيان والتبين،ج3ص34/33 شرح السندوبي، القاهرة.

18- مالك بن الريب: ديوان مالك بن الريب، تح: نوري حمودي القيسي، مج معهد المخطوطات العربية، مج15-ج1، مايو1969م. ص51- 114

19- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق،عبد الستار أحمد فراج،ص 26/1،ط3، دار المعارف القاهرة.

20- الجاحظ، "البيان والتبيين"، الجزء الثالث، باب العصا.

21- الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص13.

22- نفس المصدر السابق.

23- ديوان الفرزدق، ص503 وينظر: البيان والتبين1، 2، ج2، ص25

24- امثال الجاحظ، كتاب الحيوان شاهدا، دراسة ونصوص، نعيمي مريم، ص298

25- محمد نويري، البلاغة وثقافة الفحولة، دراسة في كتاب العصا للجاحظ، ص99

26-الجاحظ "البيان والتبيين1-2"ج2ص27، البيت ملفق من بيتين الجزء الأول لصفوان الأنصاري.

27- الجاحظ، "البيان والتبيين"، الجزء الثالث، باب العصا.

28- الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص28

29- عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي " ص 211، 213

30-الجاحظ "رسالة التربيع والتدوير"في رسائل الجاحظ،ت، عبدالسلام هارون،5،3، نشر الخانجي القاهرة 1947

31-الجاحظ "البيان والتبيين"ج2ص17

32-الجاحظ "البيان والتبيين1-2"ج2ص23

33- المصدر السابق نفسه.

34- عبد الملك مرتاض "نظرية النص الأدبي " ص221

35- محمد عبدالغني المصري، نظرية أبي عثمان في النقد الأدبي، دار مجدلاوي، عمان/الأردن، ص210،ط1، 1987م.

36- الجاحظ، الحيوان، ج6،ص206

المراجع:

1- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2004 ج،ج2.

2- ابن منظور، لسان العرب (المجلد ط1)، لبنان: دار صادر، بيروت،1997م.

3- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق،عبد الستار أحمد فراج، ط3، دار المعارف القاهرة.

4- أحمد الزغبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، لأردن، ط2، 2000م.

5- -بدوي طبانة،السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1986م.

6- بوجمعة شتوان، بلاغة النقد وعلم الشعر في التراث النقدي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو،دار الأمل للطباعة والنشر،2007م.

7- الجاحظ، البيان والتبيين، (السندوبي، المحرر) القاهرة، 1947م.

8- الجاحظ، الحيوان (المجلد ط3). بيروت: دار الكتاب العربي1966م.

9- الجاحظ، رسائل الجاحظ،ت:عبدالسلام هارون،ط1، نشر الخانجي، القاهرة،1979م.

10- الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، (عبدالسلام هارون، المحرر) القاهرة، مصر: مؤسسة الخانجي،1947م.

11- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،المغرب، بيروت، لبنان، ط 2 1997م.

12- حنا الفاخوري، الجاحظ، ط8،دار المعارف،القاهرة،2006م.

13- ديوان مالك بن الريب، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج15-ج1، ربيع الأول 1389 مايو1969م .

14- طبانة بدوي، معجم البلاغة العربية (المجلد ط 3)، 1988م، الرياض، دار المنارة.

15- عبدالملك مرتاض،ألف ياء،ط2،دار الغرب،وهران، 2004م.

16- عبدالملك مرتاض، فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص، علامات، النادي الثقافي،جدة،ع1، ماي 1991م.

17- عبدالملك مرتاض، نظرية النص الأدبي (المجلد 2). 2010م، الجزائر، بوزريعة، دار هومة.

18- الفيروز آبادي، القاموس المحيط (المجلد ط2)، 1997م، بيروت، مؤسسة الرسالة.

19- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (2005م). الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، 2005م، مكتبة الشروق الدولية .

20- محمد المصري بن عبد القني، نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي (المجلد ط1)، 1987م، عمان، الأردن،دار مجدلاوي.

21- محمد عبدالمنعم خفاجي،أبوعثمان الجاحظ،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1982م.

22- محمد بركات،النقد الأدبي وأدب النقد،سلسلة الأدب والبلاغة والبيان القرآني،ط1، 2001م، دار وائل للنشر،عمان،الأردن.

23- مصطفى السعدني، التناص الشعري قراءة أخرى لقضية السرقات، منشأة المعارف الإسكندرية، 1991 م،بدون طبعة.

24- مصطفى هدارة، مشكلة السرقات الأدبية في الأدب العربي دراسة تحليلية مقارنة، مصر،1958م، مكتبة الانجلو مصرية.

25- الموسى خليل، مقال في مجلة الموقف الأدبي، (1996 م). التناص والأجناسية في النص الشعري. دمشق، 1996م، الصادرة عن إتحاد الكتاب العرب.

26- يحي بن مخلوف، التناص ntertextualité مقاربة معرفية في ماهيته وأنواعه وأنماطه حسان بن ثابت. باتنة، الجزائر،2008م دار قانة.